البلاغة العامة وتحليل الخطابات الاحتمالية
بحث في المداخل المنهجية وآليات الاشتغال*

The public rhetoric and probabilistic discourses analysis
A study of methodological entries and working mechanisms

د. عزيز أوسو
المدرسة العليا للأساتذة، الرباط – المغرب.
azizoussou17@gmail.com
أ.د. أحمد بوعنان
المدرسة العليا للأساتذة، الرباط-المغرب
bouananemgt@gmail.com

ملخص

أصبح الحديث عن البلاغة في المشهد النقدي العربي يستلزم التفريق بين تصورين مباينين؛ الأول قديم يمثله السكاكي ومن تلاه بالشروحات والتلخيصات، والثاني حديث تمثله الممارسة النقدية العربية الحديثة، إذ لم تعد هذه الأخيرة تنظر إلى البلاغة باعتبارها علماً يدرس الأسلوب وفق علم البيان والبديع والمعاني، بل جعلت من البلاغة علما عاماً يتخذ من الخطابات الإنسانية مادة للدراسة والتحليل .

ومن هذا المنطلق، تأسس هذا البحث ليسلِّط الضوء، تحديدا، على المداخيل المنهجية والبنية المصطلحية التي صارت البلاغة العربية العامة تتخذها كآلية لتحليل النصوص والخطابات؛ سواء الهادفة إلى تحقيق الإقناع والتأثير(المناظرة، الخطبة، الخطاب السياسي والديني... إلخ)، أو الهادفة إلى تحقيق الإمتاع (الشعر، القصة، الرواية، المسرحية... إلخ)؛ على اعتبار أن البلاغة وفق الممارسة النقدية الحديثة أصبحت تنفتح على كل الخطابات الإنسانية القائمة على الاحتمال. ومنه، يتحصل أن هذا البحث يعالج إشكالية تتحدد أساسا في فعَّالية البنية المصطلحية والآليات التحليلية للبلاغة العربية الحديثة في المقاربة التحليلية للنصوص الإبداعية.

تاريخ استلام البحث: 2022/01/18	تاريخ قبول البحث: 01/ 04 / 2022	تاريخ النشر:15 /2023/05

الكلمات المفاتيح: البلاغة العامة، النص، الخطاب، المصطلحات البلاغية، الإقناع، الإمتاع .

Abstract

Rheoric in the Arab critical scene requires differentiating between two opposing perceptions. The first one is ancient, represented by Al-Sakaki and those who followed him with explanations and summaries, and the second one is modern one represented by the modern Arab critical practice (MACP). This latter no longer considers rhetoric as a study of style according to the rhetoric, ingenuity and meaning science, but has made rhetoric a general science that takes human potential discourses as a subject for study and analysis.

From this point of view, this research has been established to shed light, in particular, on the methodological contributions and terminological structure that general Arabic rhetoric has come to take as a mechanism for analysing texts and discourses, whether it is a matter of persuasion and influence (debate, sermon, political and religious discourse, etc.), or at achieving enjoyment (poetry, storytelling, novels, plays, etc.) Considering that rhetoric, according to modern critical practice, has opened up to all human discourse based on the possible, this research addresses a problematic that is mainly defined in the effectiveness of the terminological structure and analytical mechanisms of modern Arabic rhetoric in the analytical approach to creative texts.

Keywords : general rhetoric, text, discourse, rhetorical terms, persuasion, enjoyment.

مقدمة

يبدو أن الممارسة النقدية العربية المعاصرة قد عرفت تطوراً وانفتاحاً ملفتين للنظر، بدليل أن المشهد النقدي العربي صار مليئا بجملة من المصطلحات النقدية المتصلة والمنفصلة. ويظهر أن هذا التداخل في المصطلحات النقدية البانية للمناهج والنظريات النقدية واللسانية نتج عنه لَبْسٌ وغموضٌ، الشيء الذي خلق فوضى المصطلح في الممارسة النقدية المعاصرة. وتماشيا مع هذا المعطى، تأسس هذا البحث ليسلِّط الضوء على حقل معرفي نقدي يندرج ضمن الممارسة النقدية، وقد اصطُلِحَ عليه بـ"البلاغة العامة". وقد سعى البحث إلى بيان حدِّ البلاغة العامة، والتساؤل عن مصدر تسميتها وبيئة

تَشَكُّلِهَا، وأيضاً توضيح آليات اشتغالها في إطار المقاربة التحليلية للنصوص والخطابات، فضلا عن بيان أدوار التلاقح الثقافي النقدي في تأسيسها باعتبارها حقلا معرفياً نقدياً يتجاذبه القديم والحديث، والعربي والغربي.

1. من البلاغة المختزلة إلى البلاغة العامة: سؤال في سيرورة التَّشَكُّلِ

يسترعي الحديث عن سؤال تشكُّل البلاغة العامة التأكيد على أن البلاغة عموما اتسمت بالدينامية والتطور والتجدد، ذلك أن حدَّها لم يَعرِفْ الاستقرار سواء في نشأته العربية أو الغربية التراثيتين. وبذلك ظلت، وستظل، تقوم على التحيين؛ لأنها ترتبط بالكفاية التواصلية والتخاطبية لدى الإنسان. ومادام أن هذه الكفاية خاصية ملازمة له، ويسعى إلى تقويتها وتطويرها، وكانت البلاغة تتعلق بها فإن هذا ما يضمن للبلاغة استمراريتها في الوجود عبر مُختلِف الأزمنة التي يحيا فيها الإنسان، ولعل هذا ما عبَّر عنه حازم القرطاجني بقوله: (كيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتَّى تحصيلها في الزمن القريب، وهو البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاذ الأعمار)[1]. ويظهر أن البلاغة حظيت بمكانة مرموقة وحضور متميز في الممارسة النقدية العربية القديمة والحديثة؛ ذلك أن تمحيص النظر في المصنفات النقدية والبلاغية التراثية يشي بأن البلاغيين أولوا اهتماماً كبيراً للدرس البلاغي، ولذلك نلفيهم نحتوا تعريفات وتحديدات تتباين بتباين عقائدهم ومذاهبهم، وهذا ما جعل البلاغة عندهم فروعا متعددة؛ (فمنها بلاغة الشعر ومنها بلاغة العقل ومنها بلاغة البديهة ومنها بلاغة التأويل)[2].

وقد توضَّح من خلال تتبع مسار تشكُّل البلاغة في التفكير البلاغي التراثي بأنها اتخذت تلوينات وتعريفات متباينة، الشيء الذي جعلها تتفرع إلى بلاغات، ولتعضيد هذا الموقف نُورِدُ استشهاد الجاحظ بقول ابن المقفع الذي أقرَّ على أن (البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون خطابا، ومنها ما يكون رسائل)[3]. وعليه، يتحصل أن البلاغة تمتد لتنفتح على مختلف الخطابات التي يمكن للمرء أن يتوسَّل بها بقصد التعبير عن أفكاره وعواطفه وحاجياته، وإن هذا

التوسُّع هو الذي يضمن لها مكانتها داخل الحقول المعرفية المجاورة لها، فضلا عن كونها تسمح للمتكلم بأن ينوِّع في آليات تعبيره بالشكل الذي يستجيب لأغراضه البلاغية، ومقاصده التخاطبية.

وتتكشف ملامح تطور البلاغة في الممارسة النقدية التي أرسى دعائمها التفكير البلاغي التراثي من خلال التحديدات التي قُدِّمت لها، فقد جعلها ابن المعتز في بديعه بلاغة للشعر، معتبراً إياها تقوم على مقومات فنية وجمالية يوظفها الشعراء في أشعارهم، وفي هذا الأمر يقول: (البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء)[4]. ومنه، يظهر أن قيمة ووظيفة البلاغة عنده بديعية (تحسينية) تضفي على الشعر حسنا وتزيينا. وأما الجاحظ فنلفيه نحتَ حَدّاً مخالفاً لما قدَّمه ابن المعتز؛ بحيث جاءت البلاغة عنده مقترنة بالخطابة التي تنحصر وظيفتها وقيمتها في الإقناع والتأثير، وقد اصطلح عليها ب"البيان"، وفي هذا يقول: إن (البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان (...)، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع)[5]. يتضح من هذا القول أن البلاغة لا ترتبط بالخطاب الجمالي الهادف إلى تحقيق الإمتاع، بل ترتبط كذلك بالخطاب المقنع والمؤثر. ومنه يُستخلص، وفق تصور ابن المعتز والجاحظ، أن البلاغة نوعان؛ بلاغة الإمتاع وبلاغة الإقناع؛ أي أنها تخص الشعر تارة والخطابة تارة أخرى، وهذا ما جعلها مختزلة)[6].

ويبدو أن الطرح البلاغي الذي وضع اللبنة الأساس لإرساء بلاغة عامة هو ما جاء به حازم القرطاجني في منهاجه، إذ عَمِلَ على بلورة تصور جديد لمفهوم البلاغة، وهو تصور لم يسبقه إليه أحدٌ؛ لأنه وسَّع من دائرتها، وجعلها منفتحة على مختلِفِ الخطابات سواء كانت إقناعية أو إمتاعية، يقول في هذا الصدد: (كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع... وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده)[7]. وإذا نظرنا إلى الطرح الذي قدَّمه السكاكي في مفتاح علومه، فإننا نجده تبنى تصوراً مغايراً لتلكم النماذج السالفة؛ بحيث أنه حوَّلها إلى بلاغة جامدة وتقنية (مدرسية)، وجعلها أقرب من أن تكون علما صوريا تضبطه قواعد

جامدة شبيهة بضوابط علمي النحو والصرف. وعلى هذا الأساس، عَمِلَ على تبويبها إلى ثلاثة علوم وهي: علم المعاني والبيان والبديع.

وأمام هذه الجمود الذي عرفته البلاغة العربية مع السكاكي تَشَكَّلَ لدى ثلة من البلاغيين العرب الوعي بضرورة بعثها وتطويرها، وإخراجها من الجمود الذي طالها. ومنه، بدأت الممارسة النقدية العربية الحديثة تسعى إلى إحياء البلاغة، وإعادة استنبات آليات اشتغالها حتى تساير مستجدات العصر، وجعْلِها علماً عاماً قادراً على الانفتاح على مُختَلِفِ الخطابات والنصوص التي ينتجها الإنسان. ولعل ما أسعف الممارسة النقدية العربية في عملية الانتقال بالبلاغة من كونها مختزلة إلى عامة (كلية) هو قدرتها على إعادة قراءة الموروث البلاغي العربي، وأيضا الانفتاح على الدرس الغربي الحديث، يقول محمد العمري في هذا السياق: (إن وضع منظومات مصطلحية نسقية، ولو كهيكل غير مكتمل، هو الشرط الضروري لقيام حوار بنّاء بين ما أنجز في اللغة العربية وبين منجزات الدرس الأدبي الحديث)[8].

ويتضح أن تشكِيل البلاغة العامة طرح أسئلة متعددة تتعلق أساساً بالمنظومة المصطلحية والسياق المعرفي، ذلك أن إنشاء (بلاغة عربية عامة، كما يبتغيها الأستاذ العمري، مرتبط ارتباط لزوم بإنشاء منظومة مصطلحية إجرائية. وهذا يقتضي مراعاة الفارق المعرفي، والاختلاف الحضاري بين المُرسل/ الآخر الغربي، وهو ينتج المصطلحات والمفاهيم ويسعى إلى تصديرها، والمُسْتَقبِل/ الأنا العربي، في وضع المُنفعل المستهلك، كما يقتضي الوعي بمتطلبات النسق، سواء النسق البلاغي الخاص، أو النسق المعرفي العام. وفي هذا الاتجاه اجتهد العمري في اقتراح رُزْنَامة من المصطلحات منها: تلك التي أعاد تعريفها في حوار بين التراثين البلاغي العربي والغربي القديم والحديث، كما هو حال مصطلح بلاغة، ومصطلح إنشاء، ومصطلح تجنيس وترصيع وما تفرع عنهما. وتلك التي اقترحها للتعبير عن مفاهيم لم تكن متبلورة في التراث العربي، مثل مصطلح خَطَابية، ومصطلح مُسْتَمَع. ومنها ألفاظ قديمة شبه اصطلاحية تَمَّتْ ترقيتُها إلى مصطلحات، كما هو الشأن مع مصطلح انزياح، ومصطلح صورة، ومصطلح حُجة إلخ)[9].

إن تأسيس مصطلح البلاغة العامة الذي دأب محمد العمري، إلى جانب باحثين آخرين، إلى التقعيد له بُنِيَ على خلفية معرفية عميقة ببيئة المفاهيم والمصطلحات، وقد شكَّل الوعي بخصوصيات الخطابات وأهدافها المنطلق المركزي في تحديد موضوع البلاغة العامة، يقول محمد العمري في هذا الشأن: (حين نبحث عن بلاغة عامة نحتاج إلى لفظ يدل على ما يقوم به الشاعر والكاتب والخطيب. نحن نقول: الشاعر والخطيب والكاتب والروائي والسيناريست وكاتب النص المسرحي... إلخ. ثم نحتاج إلى اللفظ الذي يجمع كل هذه الممارسات لكي نصوغ حوله بلاغة عامة. الفرنسيون يستعملون لفظ "إنتاج" إنتاج النص Production du texte، ويستعملون لفظ المؤلف Auteur للدلالة على الذي يقوم بهذا الإنتاج. ووضعنا في العربية أحسنُ لأننا سنشتق الفاعل من الفعل نفسه، فنقول: الإنشاء والمنشئ)[10].

ومنه، كانت البلاغة العامة تتخذ كل أنواع الخطابات والنصوص موضوعا لها، سواء كانت سردية أو شعرية أو دينية أو سياسية... إلخ، وهذا ما يوضِّحُ أن الإنشاء أصبح يدل على الإنتاج النصي والخَطَابِي؛ مما يعني أن مدلوله توسَّع مقارنة بما كان يُطلق عليه في الدرس البلاغي السكاكي. ومادام أن تلك النصوص والخطابات توجد بينها تباينات من حيث البنية النصية والوظيفة المرجوة منها، فإن هذا ما يُسوِّغ إنشاء بلاغة خاصة لكل نوع على حدة، والمزج بين تلك البلاغات هو تأسيس للبلاغة العامة؛ على اعتبار أن (البلاغة العامة تستلزم بلاغات خاصة والبلاغات الخاصة تقتضي بلاغة عامة، البلاغة العامة تتضمن عنصرا منسقا)[11].

وإذا تساءلنا عن حدِّ البلاغة العامة في الممارسة النقدية العربية فإنا نلفي محمد العمري يؤكد على أنه لا يستقيم الحديث عنها بدون الاتفاق على أن النصوص والخطابات ذات البعد التخييلي الجمالي والأخرى ذات البعد التداولي الحجاجي تجتمع وتتقاطع في منطقة أَطْلَقَ عليها اسم الاحتمال؛ (الاحتمال توهيما أو ترجيحا، والتوهيم في التخييل والترجيح في التداول الحجاجي)[12]. ويقصد بالخطابات الاحتمالية تلك التي لا تُقَدِّمُ معطيات برهانية يقينية، وتقبل الرأي والرأي الآخر؛ أي أنها تؤسِّسُ لنوع من العملية التخاطبية يكون فيها التأثير والتأثر العنصران المركزيان الجديران بالاهتمام؛ سواء كانا فنياً وجدانياً أو كان عقلياً حجاجياً. ومنه، فإن (الخطاب الذي تتناوله

البلاغة[العامة] هو كل خطاب يقتضي أثراً وتفاعلاً بين متخاطبين فعليين (قائمين) أو مفترضين. وهذ الأثر لا يعدو أن يكون طلباً للتصديق أو طلباً للتخييل والتوهيم. ومعنى ذلك استيعاب الخطاب التداولي الحجاجي كله: من الإشهار إلى المناظرات، وكل أشكال الحوار والمناقشات من جهة، وكل صور التعبير الأدبي بالمعنى الحصري للأدبية بما فيها الشعر والسرد وما تفرع عنهما أو بُني عليهما)[13]. ومن هذا المنطلق، عُرِّفَت البلاغة العامة بأنها (علم الخطاب الاحتمالي المؤثر المنجز بالاختيار مناسبة أو إغرابا)[14].

وتتفق الدراسات النقدية، سواء العربية أو الغربية، المهتمة بالدرس البلاغي الحديث أنه ينتمي للبلاغة العامة (كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كل خطاب فيه الوظائف الثلاث: المتعة والتعليم والإثارة مجتمعة ومتعاضدة؛ كل خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعمتين بالحجاج)[15]. وبذلك، تم التأكيد على أن (الشعري والخطابي يتقاطعان في منطقة (Région) المحتمل (...)، ومن الأكيد أن هناك خطابة في الشعر وشعرا في الخطابة، غير أن الأمر ليس بنفس القوة في الحالتين؛ فالشاعر لا يحاجج بمعنى الكلمة، حتى وإن كانت شخصياته تحاجج؛ فالحجاج عنده يساهم في حدود تنمية الحبكة، والخطيب لا يخلق حبكا للحكاية حتى وإن ضمن خطابه عنصرا سردياً)[16].

وبناء عليه، يتحصل أن البلاغة العامة هي مزج بين الخَطابية والشعرية؛ (فموضوع الأولى الخطابة بمعناها العام، وموضوع الثانية الشعر بمعناه العام)[17]. ومنه، يمكن أن نخلص إلى أن الدراسات النقدية البلاغية الحديثة أعطت تصوراً جديداً للبلاغة، بحيث لم تعد مختزلة؛ أي مقتصرة على جنس أدبي أو خَطابي واحد، بل صارت علما لكل الخطابات والنصوص التي يُنتجها الإنسان بغرض التعبير والاستمالة والتأثير. ويُستنتج كذلك أن سؤال التأسيس للبلاغة العامة ساهم في بلورته حقلين معرفيين؛ الحقل البلاغي العربي القديم والحقل البلاغي الغربي. وعليه، أمكننا التساؤل عن المُدخَل المنهجي الذي تعتمده كل من بلاغة الإقناع (الحجاج) وبلاغة الإمتاع (التخييل) في دراستها وتحليلها للنصوص والخطابات الاحتمالية، وأيضا تبيان البنية المصطلحية وآليات الاشتغال المعتمدة في ذلك.

2. مداخل وآليات اشتغال بلاغة الإقناع في تحليل الخطاب الاحتمالي

إن الحديث عن بلاغة الإقناع (الحجاج) هو حديث بالدرجة الأولى عن البلاغة الأرسطية المُجَدَّدَة، بحيث تولَّد عن إعادة إرساء قراءة ابستمولوجية للتراث الأرسطي بلاغة جديدة تستجيب لتطلعات العصر ومستجداته من حيث المنهج وموضوع الدراسة، ويعود الفضل في إحيائها، وجعلها بلاغة حجاجية جديدة تستهدف كل الخطابات التأثيرية الإقناعية، إلى أبحاث شايم بيرلمان Chaim Perelman ولوسي أولبيرتش تيتيكا Lucie Olbrchts-Tytecaفي كتابهما "مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة". لقد عمِلَ بيرلمان على إخراج البلاغة من جمودها وركودها والنسيان الذي طالها سنوات عدة، بحيث جعلها مبحثاً معرفياً جديداً يستجيب للنصوص والخطابات الحجاجية التي تفرضها حياة الإنسان في مختلِف المقامات التي يحيا فيها.

وتتبدى ملامح التجديد التي جاء بها بيرلمان في إطار إحياء البلاغة وتوسيعها، كونه وسَّع من دائرة اشتغالها حتى فاقت المقام الاحتفالي والقضائي والسياسي، إذ جعلها (تعنى بكل أنواع المستمعين سواء أتعلق الأمر بحشد مجتمع في ساحة عمومية أو باجتماع مختصين، أم بشخص واحد أم بكل الإنسانية، إنها تعنى أيضا بالحجج التي يوجهها المرء إلى نفسه، خلال حديث نفسي)[18].

ويسترعي الحديث عن البنية المصطلحية والمداخل المنهجية التي تنطلق منها المقاربة البلاغية الحجاجية للنصوص والخطابات التأثيرية التأكيد على أنه في موروثنا العربي لم يكن لدينا (تصور متكامل عن تحليل بلاغي للنصوص، في مقابل ذلك يوجد رصيد هائل من التوصيف والتصنيف وأحيانا التأويل لعديد من مقومات الأسلوب أو ما اصطلح عليه ب"الوجوه البلاغية" أو "الصور" أو "المحسنات" في الشعر والخطابة والترسل والقرآن الكريم. ويشهد على ذلك ما صنعه (...) صناع البلاغة العربية الذين اكتفوا برصد الوجوه البلاغية أو تأويلها بوصفها معقد البلاغة، دون أن ينشغلوا بالنص في كليته، باعتباره نسيجا موحدا، صادرا عن ذات إنسانية، ومرتبطا بشكل من الأشكال بموقف تواصلي، ويخاطب ذاتا إنسانية تتفاعل مع ما تتلقاه بعقلها ومشاعرها، وبذاتها وامتدادها في الحاضر)[19].

وبالرجوع إلى استكناه المداخل المُؤَسِّسَةِ للمقاربة البلاغية الحجاجية، يمكن القول إنها سلكت منهجا فريداً في المقاربة التحليلية للنصوص والخطابات المؤثرة، بحيث أنها تهتم بالمتكلم (منتج النص/ الخطاب) ومتلقيه (المخاطَب) كما تبحث في لغة النص/ الخطاب ذاتِه، ويبدو أن هذا المُدخَل

المنهجي في التحليل كان مرادفا لها منذ نشأتها الأرسطية؛ بحيث نلفي المعلم الأول (أرسطو) يقول ما نصه: (من بين وسائل الإقناع المقدمة بواسطة الخطاب هناك ثلاثة أنواع، فبعضها يكمن بالفعل في خُلق من يتكلم (الإيتوس) والأخرى في عملية جعل السامع في هذه الحالة أو تلك (الباطوس)، والأخرى في الخطاب (اللوغوس) نفسه بواسطة كونه يبرهن أو يظهر أنه يبرهن)[20]. ومنه، يتبدى أن المقاربة البلاغية الحجاجية للنصوص والخطابات التأثيرية تركز على صورة المتكلم في النص وهذا ما اصطُلح عليه بالإيتوس الخَطابي، وتأخذ الحالة والطبائع التي يكون عليها المخاطَب بعد تلقيه للخطاب وتأثُّرِه بفحواه ومراميه، وهذا ما تمت تسميته بالباطوس الخَطابي، وتنظر أيضا في طبيعة ومقومات الخطاب عينه، وهو الذي أطلق عليه باللوغوس الخَطابي.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن التحليل البلاغي الحجاجي لا ينظر إلى تلك الاستراتيجيات بأنها متفرقة أو منعزلة، بل يتعامل معها في اتساقها وانسجامها؛ بحيث أن (تحليل اللوغوس من خلال استثمار وسائل اللغة الطبيعية، لا ينفصل عن تحليل الصورة التي يقدم بها المتكلم ذاته في الخطاب (الإيطوس)، وعن تحليل الأهواء التي يثيرها الخطاب في المخاطَب (الباطوس). إن هذه الوسائل الحجاجية الثلاث توجد في وضع متلاحم داخل الخطاب)[21]، كما أنها تعد ضرورية في التحليل البلاغي الحجاجي؛ فهي الاستراتيجيات التي يُبنى بها الخطاب الحجاجي من جهة، وبها يُحلَّلُ من جهة ثانية. ولعل أهميتها هو ما دفع مشيل مايير Michel Mayer إلى الإقرار بأنه (من دون الإيتوس والباتوس واللوغوس لا توجد بلاغة ولا حجاج)[22]. وعلى هذا الأساس، يمكن أن نتساءل عن منطق اشتغال كل استراتيجية بلاغية على حدة، وأين تكمن نجاعتها في مقاربة النصوص والخطابات التأثيرية.

أ- استراتيجية الإيطوس Ethos

يستلزم الحديث عن الإيطوس في الدرس البلاغي الحجاجي توضيح الفروق الدقيقة بين المرسِل كما اصطلح عليه جاكبسون، أو المتكلم كما أسماه رواد الدرس التداولي الحديث، ويرجع الاختلاف بين هذين المصطلحين إلى المنطلقات الإبستمولوجية التي تَشكَّل فيها كل مصطلح على حدة، إذ يُعرَّف الإيطوس أساسا بأنه (الانطباع الذي يمنحه الخطيب عن ذاته بواسطة أقواله)[23]. ولقد

وضَّح أرسطو وبعده بيرلمان هذا الأمر، بحيث أنهما لم يعتبرانه مخاطِباً عادياً أو متكلما خاصا يَعرِف بُنى ومنطق اشتغال الخطاب التأثيري، بل تم تحديده بأنه الصورة التي يمنحها الخطاب عن منتجه، وفي هذا يقول أرسطو: (لا يكفي المرء أن عليه أن يعرف ما يقول، ولكن على المرء أيضاً أن يعرف كيف يقول، وهذا يسهم إلى حد بعيد في جعل الكلام يظهر بشخصية خاصة) [24].

إن التحليل البلاغي لإيطوس المتكلم في الخطاب لابد أن يسلك مُدخلاً حجاجياً خاصاً يتتبع فيه المحلل تجليات الصورة التي يريدها المتكلم لذاته. وبذلك، لزم المحلل (أن يكون على دراية بالأقيسة وعلى بنية من الأخلاق والفضائل، والميولات والانفعالات) [25]، مما يعني أنه لابد له أن يتمتع بمعرفة واسعة تخص كل ما هو أخلاقي وسيكولوجي؛ نظراً لكون القارئ أو السامع في بعض المقامات يمكن توجيه فهمه من منطلق عاطفي وجداني، كما يمكن توجيه بناء على ما هو عقلي منطقي، فضلا عن استهداف أخلاقه وفضائله، وكل هذا يتحكم فيه مقام التخاطب والحالة السيكولوجية التي يكون عليها المخاطَب. ولعل هذا ما عبَّر عنه الجاحظ بقوله: (ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات) [26].

ومنه، تكون المقاربة البلاغية الحجاجية للنصوص والخطابات التأثيرية تنطلق في دراستها للإيطوس الخطابي للمتكلم، من مسلمة مفادها أن المتكلم والمخَاطَب (المتلقي) تجمع بينهما مسلمات واتفاقات مسبقة هي التي تجعل فعل التأثير والتأثر ممكنا، ذلك أن غياب هذا الجانب يؤدي حتماً إلى التنافر والتصارع بينهما، وقد أكد بيرلمان هذا المعطى بقوله: (يتوجه كل جهد إقناعي إلى مُستمَع. ولكي يُقنِع المرء ينبغي أن يُسمَع؛ وإذا أراد أن يُقنِع عليه أن يولي الاهتمام لموافقة من يَسمعه. فالإقناع يفترض، إذن، وجود شيء ما مشتَرك بين من يتكلم ومن يسمعه، وبين من يكتب ومن يقرأ له، وهو أمر لا يحصل دوماً بشكل تلقائي: فالمرء لا يوجِّه الكلام لأيٍّ كان، وليس كل شخص يستحق دائما أن يُسمع) [27]. ومن هنا يكون استحضار الأفكار المشتركة والاتفاقات المسبقة بين منتج الخطاب التأثيري ومستَمِعه يعدُّ أمراً مهما في إقامة تحليل بلاغي حجاجي؛ لأنه (من دون هذا الاتفاق في حدوده الدنيا، لن يكون هناك حوار أو جدل، بل عنف أو تجاهل) [28].

ويتوجب على المحلل للإيطوس أيضا أن يركز على العلاقة التي يقيمها صاحب الخطاب مع مخاطَبه انطلاقا من لغته، لأنه عادة ما (يضطلع بدور الناصح المرشد الذي يأخذ بيد الجمهور ويوجهه ويحرص على كسبه بتجنب إثارة عداوته وإحساسه بالدونية)[29]، كما يمكن أن يهاجمه إذا كان عدواً له، بحيث يعمل على إظهاره في (صورة سلبية تقلل من قدره وتظهره في مظهر الشخص غير الجدير بالثقة)[30]. وعليه، يتحصل أن منتج الخطاب يستحضر باستمرار التفاعل القائم بينه وبين مخاطَبِه، ويتكيَّف مع حالاته، نظراً لكون (الخطيب يبني إيطوسه بواسطة الهجوم على الآخر)[31]، بغية استمالته والتأثير فيه حتى يبلغ تغيير وجهة نظره.

يتضح إذن أن الإيطوس الذي يظهر به صاحب الخطاب يتحكم بشكل كبير في العملية التحليلية البلاغية، نظراً لكون الصورة التي يرسمها لذاته في نفسية مخاطَبِه هي التي تُوجِّه التحليل البلاغي للإيطوس. وإضافة إلى هذا، يتعين على المحلل البلاغي أن يراعي المقام التخاطبي الذي تولَّد عنه الخطاب من أجل بلوغ ملامح الإيطوس الخطابي، فبدون استحضار المقام وظروف التخاطب يصعب تعيين، طبيعة الإيطوس المؤثر الذي يظهر به المتكلم؛ لأن العملية التخاطبية الحجاجية ليست عملية اعتباطية، بل يحكمها موضوع ومقاصد محددة سلفا، وعليهما مدار عملية الفهم والإفهام بين طرفي التخاطب.

ب- استراتيجية الباطوس Pathos

يعدُّ الباطوس من أهم الاستراتيجيات التي تعتمدها بلاغة الحجاج في المقاربة التحليلية للنصوص والخطابات الاحتمالية التأثيرية، ويرتبط تحديداً بالمتلقي المخاطَب. وينبغي الإشارة في هذا الصدد إلى أن الباطوس الخَطابي لا يقصد به المخاطَب أو المتلقي ذاته، وهنا يكمن التباين الحاصل بين المتلقي المخاطَب في العملية التواصلية العادية وبين الباطوس كما تتصوره المقاربة البلاغية الحجاجية. وعليه، عُرِّف الباطوس بأنه (تصدير السامع في حالة نفسية ما)[32]؛ مما يعني أنه يمثل الحالة النفسية التي يكون عليها المخاطَب بعد فعل التلقي والتأثر بالخطاب الحجاجي.

ومنه، يتحصل أن الباطوس يتعلق بأهواء السامع التي يُحدثِها الخطاب التأثيري الإقناعي، وهاته الأهواء والمشاعر والأحاسيس والانطباعات هي التي يستهدفها منتج الخطاب ويعمل عليها، ومن ثمة

لزمه الاستعانة بآليات وسمات خَطابية تمكنه من توجيه مخاطَبِه من أجل التحكم فيه، لأن (سمات المحاج التي يستخدمها الخطيب في خطابه، تؤثر في بناء صورته وتوجه إدراك السامع له؛ فصورته الذاتية في الأذهان تتعاظم أو تتناقص وفق تأثيرات المحاج)[33]. ومن هذا المنطلق، يتضح أن المحلل البلاغي للنصوص والخطابات التأثيرية يتعين عليه البحث، انطلاقاً من البنيات اللغوية للخطاب وتقنياته البلاغية المحاجية، عن الانطباعات التي يمكن أن تتشكَّل عند متلقيها، وأن يعمل على إيجاد مُسوِّغات كاشفةٍ عن الصورة التي أراد الخطيب أن يرسمها ويزرعها في عواطف وأهواء متلقيه.

وبهذا المعنى، يتبدى أن العلاقة بين منتج الخطاب ومتلقيه مبنية على التأثير والتأثر. وعلى هذا الأساس، كانت المقاربة البلاغية المحاجية (تعبر دوما عن المسافة بين الإيطوس (الخطيب) وبين الباطوس (المستمع)، وإذا انعدمت هذه المسافة لن يكون هناك مسوغ لوجود البلاغة أصلا)[34]، ولعل هذا ما يُظهِرُ أن الخطيب، في المقام السياسي أو الديني مثلا، يأخذ في حسبانه واعتقاده، قبل إنتاج خطابه، طبيعة مخاطَبه، بحيث لابد أن يستفهم عن طبيعته وتوجهه الفكري ومرجعيته الثقافية والدينية، وحدود تفاعله مع مقاصِد الخطاب، فضلا عن الأخذ بالجوانب العاطفية التي تثير انفعالاته وأهوائه، فهو بهذا المنطق يُنتج خطابه (بناء على حقيقة إنسانية وعلمية مفادها أن الإنسان يتأثر بوجدانه أكثر مما يتأثر بعقله، وأن الخطيب لا يملك حمل المخاطَب على الفعل والتحكم في إرادته وقيادته بالاكتفاء بالحجج العقلية دون مخاطبة وجدانه)[35].

وعليه، يكون الخطاب جسراً ناجعاً لبلوغ عواطفه وقناعاته، وهذا ما يُحتِّم على الخطيب انتقاء الأدلة والحجج المسعفة له في التأثير، وأيضا استحضار مستمعه أثناء عملية تشكيل خطابه، ولعل هذا ما يضعه أمام متلق واقعي وآخر افتراضي. ومنه، فإذا كانت (كفاءة المرسل التداولية في صناعة الخطاب، فإنها تتجلى [عند المحلل] في تأويل الخطاب للوصول إلى مقاصد المرسل وإدراك حججه)[36].

يتحصل، إذن، أن الباطوس المحاجي الذي يسعى الخطيب إلى خلقه في نفسية مخاطبه اعتمادا على خطابه المحاجي يؤسس للصورة التي يكون عليها السامع بعد تلقيه للخطاب، مما يعني أن إيطوس الخطيب يتعلق بشكل كبير بباطوس السامع. ومنه، يلزم التحليل البلاغي المحاجي للخطاب المؤثر مراعاة هذا الارتباط بغية تحديد أبعاده التأثيرية. ولعل هذا التعالق الوثيق بين الإيطوس والباطوس

سنجد تمثلاته وتجلياته بشكل كبير في مختلف النصوص النثرية التأثيرية؛ نظراً لكون هذا النمط من النصوص تُكتَب بلغة تقريرية مباشرة غرضها الإقناع، فهي لا تعبِّر، عادة، بالصور التعبيرية الانزياحية التي تَحْجُبُ المعاني والدلالات، بل نلفيها تعتمد لغة تُصَرِّح أكثر مما تُضْمِر، وهذا ما يجعل التحاجج قائما بين منتج النص ومتلقيه، ومن جهة أخرى يسمح للمحلل باستقراء إيتوس الخطيب وباطوس المتلقي.

ج- استراتيجية اللوغوس Logos

يمثل اللوغوس أحد الاستراتيجيات الخَطابية التي توظِّفها بلاغة المحاج في تحليلها للنصوص والخطابات التأثيرية؛ ويقصد به مجموع الحجج التي يتقدم بها منتج الخطاب إلى مخاطَبه بقصد استمالته والتأثير فيه. وعليه، فإن اللوغوس ليس (كل بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات)[37] فحسب، بل إنه يشمل كل ما يتعلق (بأمور سلامة الصيغة اللغوية والملاءمة المقامية والعبارة البديعية)[38]، فضلا عن السلم المحاجي الذي تُبنى وفقه الآليات المحاجية للنص التأثيري، فمادام (أن غاية الخطاب هي إقناع مستمع ما، فإن ترتيب الحجج يتم تطويعه لهذه الغاية: إن كل حجة ينبغي أن تأتي في اللحظة التي ينتظر منها أن تحدث أقوى تأثير. وبما أن ما يقنع مستمعاً ما لا يقنع مستمعاً آخر فإن محاولة التطويع هذه تكون مجبرة في كل حالة على إعادة الكرة)[39].

يظهر من خلال هذا التوضيح أن اللوغوس في الخطاب المؤثر لا تنحصر وظيفته في الإخبار، بل تتعدى ذلك إلى الإقناع والتأثير. ومن هذا المنطلق، نستطيع القول إن الخطابات والنصوص التأثيرية تقوم على مقومات بلاغية حجاجية مُقنعة؛ لأن منتجها يعتبر أن غايتها (ليست مجرد الدخول في علاقة مع الغير، وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو "العلاقة الاستدلالية"، وليس العلاقة التخاطبية وحدها: فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطِب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة "المدعي" ولا مخاطَب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة "المعترض")[40]. ولعل هذا ما يوضح أن المحلل البلاغي للنص

والخطاب الحجاجين ينبغي له أن يتعامل مع لغتهما بوصفها ذات وظيفة حجاجية إقناعية، ومن ثم يسبر أغوارهما وطبقاتهما الحجاجية؛ لكي تتبيَّن له الحجة التي اختارها الخطيب بقصد التحاجج بها.

وفي هذا الصدد لا ينبغي إغفال دور المحسنات البديعية في تحقيق الإقناع، وذلك يعود (في نظر أرسطو إلى أن عامة الناس يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجيتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي)[41]. وبهذا المعنى، فالمحلل للنص/ الخطاب المؤثر ملزم بأن يراعي هذا الجانب البديعي في اللغة؛ لأن وظيفته لا تنحصر دائما في التنميق والتجميل، وإنما تكون لها أبعاد أخرى يحددها المقام التخاطبي بين مُنتج النص/ الخطاب ومتلقيه؛ على اعتبار أن (تجميل الأسلوب يكون حسب المقام والجمهور الذي يوجه إليه الخطاب، وحسب نوع الخطاب مكتوباً أو شفويا حواريا، يجب ألا ننسى أن لكل نوع خطابي أسلوباً خاصاً يليق به)[42].

إن التعابير الجمالية ذات الوظيفة التحسينية، إذا تم حسن استعمالها، يكون لها أثر حجاجي على نفوس السامعين، فكلما أتقن الخطيب استعمالها في موضعها كانت لغة خطابه أقرب إلى التأثير في مخاطَبِه، بحيث أنه إذا (لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب، فإن المحسن سيتم إدراكه باعتباره زخرفة، أي باعتباره محسن أسلوب ويعود ذلك إلى تقصيره عن أداء دور الإقناع)[43]. وعليه، فإن المحلل يلزمه أن يكون قادراً على تذوق أبعاد المحسنات البديعية، وفهم مراميها حتى يتسنى له الكشف عن وظيفتها الحجاجية التأثيرية في المتلقي، يقول أرون كبيدي فاركا في هذا الصدد: (تعتبر الصور زينة تضيف شيئا إلى الحجاج الخالص، ينبغي أن تروق الجمهور وتؤثر فيه: قيمتها جمالية ووجدانية)[44].

a. مداخل وآليات اشتغال بلاغة الإمتاع في تحليل الخطاب الاحتمالي

تَبيَّن من خلال ما أسلفنا توضيحه أن البلاغة العامة تتوزع إلى بلاغة الإقناع (التداول) وبلاغة الإمتاع (التخييل)؛ ونقصد بهذا النوع الأخير تلكم المقاربة البلاغية التي تسعى إلى تقديم دراسة تحليلية للنصوص الإبداعية ذات البعد التخييلي الجمالي. وتجدر الإشارة ههنا إلى أن بلاغة الإمتاع لها مداخل منهجية وآليات اشتغال مختلفة عن بلاغة الإقناع في إطار دراستها وتحليلها للنصوص الأدبية، وذلك راجع إلى تعدد واختلاف هذه الأخيرة. وإن هذا التنوع والاختلاف من

حيث التجنيس الأدبي هو الذي يوجِّه المقاربة البلاغية التحليلية؛ بحيث أن تحليل النصوص الشعرية يختلف عن تحليل النصوص السردية، كما أن كل نوع أدبي من هذين المجالين (الشعر والسرد) يفرض مُدخلاً منهجياً خاصاً في تحليله من أجل استكناه مقوماته التعبيرية والجمالية؛ على اعتبار أن تحليل القصيدة الشعرية يختلف عن تحليل الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والمقامة والسيرة الذاتية... إلخ.

وبذلك، يبدو أن كل جنس أدبي يستدعي مقاربة بلاغية تستجيب لخصوصياته الأدبية، مادام أن (لكل جنس من هذه الأجناس (العليا والدنيا)، يحتوي على خاصية أو خصائص لا توجد في غيره أو العكس. ولذلك فاستعمال أي منها سيغفل خصوصية تميز غيره عنه، فتبطل العمومية؛ فلولا وجود خصوصية مميزة لكل منتوج ما كانت هناك ضرورة لكل هذه الأسماء)[45]. وعلى هذا الأساس، كان كل نوع أدبي "يوجِّه بالضرورة القراءة"46.

ويظهر أن بلاغة الإمتاع من أجل الكشف عن شعرية النصوص الأدبية، وبيان أدبيتها، تنطلق أساساً من (الذوق باعتباره خبرة متماسكة وتعتمد مفاهيم وضوابط فيها قدر من الذاتية انسجاما مع طبيعة النص الأدبي الذي لا يمكن سجنه في قواعد وضوابط دقيقة)[47]. وعليه، كانت مداخلها في التحليل متباينة بتباين أدبية النص، وهذا ما جعل مفاهيمها الإجرائية هي الأخرى متنوعة ومتعددة، الشيء الذي مَكَّنها من أن تنحت (مفاهيمها من النصوص والأجناس التي تنتمي إليها؛ ومن هذه المفاهيم: مفهوم الصورة الروائية، ومفهوم المكونات، ومفهوم السمات، ومفهوم تساند المكونات والسمات)[48] وغيرها من المفاهيم ذات البعد الإجرائي التحليلي النقدي التي تستمدها من النصوص الأدبية التي تنظر فيها؛ على اعتبار أن كل (قراءة تحتاج إلى نقطة ارتكاز، على ضوئها، يقع اختيار العناصر المساعدة في النصِّ على بناء القراءة، وإهمال عناصر أخرى لا تنسجم مع التّصور الذي تصدر عنه، وبالتّالي تسقط من القراءة حتّى لكأنها في عداد ما لم يوجد (...) [وبالتالي] تترقَّب القراءة المغايرة التي يدها عليها، فتُخرجها من وضع النِّسيان والإهمال)[49].

تقوم المقاربة البلاغية كوسيلة لدراسة وتحليل النصوص الأدبية على ما يمكن أن نسميه بالمقاربة بالنوع الأدبي الذي يقتضي مراعاة المقومات المشَكِّلَةِ له؛ من حيث (اختيار الصور أو

الوجوه التي تبدو له دالَّة في سياق النوع وأهدافه، أي الصور التي تستدعيها وظيفة هذا النوع الخطابي، التي لا يمكن أن يُلاحظ حضورها في نوع آخر، أو تستخدم فيه على نحو مخصوص)[50]. ومنه، ينبغي التأكيد على أن المقاربة البلاغية تأخذ بعين الاعتبار التقاطعات والتداخلات الموجودة بين مختلِف الأجناس الأدبية من حيث هي نصوص تسعى إلى تحقيق التأثير الجمالي في القارئ المتلقي، كما أنها تستحضر مختلِف الاختلافات والانفصالات الموجودة بينها؛ مما يعني أنها تُخضِع العملية التحليلية للتجنيس الأدبي، وهذا يوضّح أن الرواية من حيث (هي جنس أدبي نثري ينطوي على مكونات وسمات تميز تشكيله اللغوي عن تشكيل الشعر، تمتلك صيغا تصويرية تتجاوز أفق بلاغة الشعر، نحو أفق سردي بشخصياته وفضائه وامتداداته. ولعل هذا ما يقتضي أن تصبح الوظيفة الجمالية في الرواية ذات أبعاد مغايرة. وإن أي بحث عن الوظيفة الجمالية في النثر بالشكل الذي تقرر لها في الأنواع الشعرية، يعد خطأ يتمثل في اعتبار الشعر منبعا للجمالية والنموذج الممثل للأدب)[51]. وبذلك، ينبغي للمحلل البلاغي أن يراعي الفروق الدقيقة التي تفرضها طبيعة العمل الأدبي إن رام إنجاز تحليل بلاغي عميق يأخذ بالأسس المعرفية التي ساهمت في تشكيله، ويراعي أيضا المنطلقات النقدية والأسس النظرية التي تقوم عليها المقاربة البلاغية، هذا كله من أجل أن يكون التحليل البلاغي منسجما مع النص الأدبي.

ويمكن أن نشير هنا إلى أن (دراسة الصورة في الرواية، انطلاقا من معيار المشابهة بين طرفين، السائد في نقد الشعر، [يعدّ] نهجا فاسداً لا يقدّر شروط السياق النوعي، كما أن دراسة الإيقاع الروائي باعتماد مبدأ التكرار الصوتي السائد في تراث نقد الشعر، يعتبر ممارسة غير علمية خاضعة لفكرة أفضلية الشعر)[52]. ومنه، يتحصل أن المقاربة البلاغية التحليلية لا تقيمُ المفاضلة بين الأعمال الأدبية، بل تتعامل معها باعتبارها تلتقي في وظيفة الإمتاع القائم على التخييل وتفترق في طرائق التعبير. وعلى هذا الأساس، ينبغي للمحلل البلاغي أن يأخذ هذه الفروق الدقيقة أُسّ تحليله، من أجل أن تكون مقاربته البلاغية كاشفة لشعرية النص الأدبي التي تنبني أساساً على وظيفة الإمتاع الجمالي. ومن هذا المنظور، يكون مفهوم بلاغة الإمتاع (معادلاً للأدب أو الأدبية، فالبلاغة تحيل إلى الوظيفة الجمالية التي عادة ما تنبع من الوجوه الأسلوبية التي رصدتها البلاغة في أبوابها)[53].

هكذا إذن، يُستخلص أن بلاغة الإمتاع (التخييل) تستجيب للمقومات البانية للنصوص الأدبية، فهي إذن (لا تهتم بالقوانين العامة للخطاب البليغ (أي الخطاب الأدبي) بقدر ما تعنى بالسمات الجمالية التي تفرزها الأعمال الأدبية في تشكلاتها النوعية المختلفة؛ وهي سمات ذات ماهية أدبية تجسد القيم التي تصورها هذه الأعمال)[54]. وقد ذهب الناقد والأديب محمد أنقار إلى تسمية هذا النوع من البلاغة بالبلاغة الرحبة، ويعتبرها (ليست قوانين متعالية تجري على جميع أنواع الخطاب، بل هي سمات مستمدة من ماهية الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه العمل الأدبي موضوع التحليل.

وبناء على هذا المبدأ يصبح مفهوم البلاغة الرحبة مغايرا لمفهوم البلاغة العامة (...)؛ [لأن] البلاغة الرحبة لا تروم صياغة قانون عام، ورصد تطبيقاته المختلفة بين اللغة والسرد، بل هي بلاغة تقوم على مراعاة الخصوصية التعبيرية في كل نوع أدبي ورصد سماته الفريدة. وهذا الرصد يتحقق بالتفاعل مع النصوص أو الأعمال، وليس بتجريدها من مقولة الجنس)[55]. إن بلاغة الإمتاع بهذا التحديد (تعتمد الذوق باعتباره خبرة متراكمة وتعتمد مفاهيم وضوابط فيها قدر من الذاتية انسجاما مع طبيعة النص الأدبي الذي لا يمكن سجنه في قواعد وضوابط دقيقة)[56].

وينبغي الإشارة في هذا السياق إلى أن النصوص الأدبية التخييلية الإمتاعية يمكن مقاربتها من زاوية بلاغية حجاجية؛ خصوصا إذا كانت تكتنز معاني ودلالات يهدف الأديب إلى جعل القارئ المتلقي يعتقد بها ويتبناها، أو إذا كانت بنيتها اللغوية والدِّلالية تقوم على الاستمالة والتأثير. ولعل هذا يؤكد المبدأ الذي تنطلق منه البلاغة العامة، وهو كون النصوص التخييلية والتداولية تتقاطع فيما بينها، بحيث نلفي ملامح الخَطَابية في النصوص الشعرية، ونلفي سمات الشعرية في النصوص الخَطَابية. ومن هذا المنطلق، كان التحليل البلاغي ينظر إلى الانزياح (العدول) في النصوص القائمة على التخييل (الشعر، الرواية، القصة، المسرحية، السيرة الذاتية.. إلخ) من بعد بلاغي حجاجي؛ نظراً لكون الانزياح، بمختلف أنواعه، الذي يُوَظَّف فيها لا تنحصر دائما قصديته في ما هو فني جمالي، بل يمكن أن يكون انزياحاً خَطابياً حجاجياً، ولعل هذا الأمر يتجسَّد أساساً كلما كان النص الأدبي تتخلله الحوارية الهادفة إلى الإقناع والتأثير. ومنه، كان التحليل البلاغي يتخذ من

(الصورة البلاغية وحدة لسانية تشكل انزياحا. وبذلك يكون فن العبارة نسقا من الانزياحات اللسانية، غير أنه يوجه فكرة الانزياح وجهة تداولية)[57]؛ أي إقناعية حجاجية.

خاتمة

تأسيسا على سبق، يتحصل أن البلاغة شأنها شأن مُختلِف النظريات النقدية التي تتطور بتطور الممارسات النقدية، بحيث تبيَّن أنها عرفت تحديدات مهمة في تاريخ تطورها، سواء في الممارسة النقدية العربية أو الغربية، ولعل هذا ما يكشف على أنها حظيت باهتمام كبير من لدن مختلِف الثقافات والشعوب؛ إذ نستطيع الإقرار بعدم وجود مجتمع لم يول اهتمامه للتفكير البلاغي، ويعود ذلك، في تقديرنا، إلى كون البلاغة تستجيب للبعد التخاطبي والتواصلي لدى الإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا بطبعه.

ويُستخلص أن الممارسة النقدية العربية والغربية جعلت من البلاغة علماً يتحكم فيه التحول والتجدُّدُ، بحيث أنه لم يستقر على حَدٍّ واحدٍ، بل نلفيه عُرِّفَ بتعريفات مختلفة منذ نشأته، وهذه التعريفات هي التي انتقلت بالبلاغة من كونها بلاغة الأسلوب إلى بلاغة مختزلة ثم بلاغة عامة؛ الأمر الذي جعلها منفتحة على مختلِفِ النصوص والخطابات التي ينتجها الإنسان في معظم المقامات التي يحيا فيها، شريطة أن تكون هذه الخطابات أو النصوص تهدف إلى تحقيق الإمتاع أو الإقناع أو هما معاً، أما الخطابات التي تنطوي على حقائق ومسلّمات يقينية فلا علاقة لها بالتحليل البلاغي. وقد اتضح كذلك، من خلال ما أسلفنا ذكره، أن البلاغة العامة انفردت بمدخلها المنهجي في مقاربتها للخطابات الاحتمالية التأثيرية، الشيء الذي جعلها وِجْهة كثير من الدارسين والباحثين في الممارسات النقدية العربية المؤَسِّسَة للمشهد النقدي العربي المعا صر.

الهوامش والإحالات:

1حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص: 88.

2 أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج 2، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت، ص: 140.

3 الجاحظ: البيان والتبين، ج 1، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ص: 78.

4 ابن المعتز: كتاب البديع، تحقيق كراتشوفسكي، دار المسيرة، ط 3، بيروت، 1982، ص: 58.

5 الجاحظ: البيان والتبين، ص: 69.

6 نود الإشارة هنا إلى أن البلاغيين العرب القدامى في إطار دراستهم للشعر والخطابة انفتحوا على الجوانب النفسية التي تتدخل في بناء المعاني والدلالات، بحيث أنهم (أعطوا التفاتة كبيرة لكيفية جريان المعاني في الأنفس ونظمها، ذلك أنهم كانوا يراهنون على ترتيب المعاني في النفس قبل أن يتم التلفظ بها أو إنجازها كخطاب لغوي إمتاعي أو إقناعي). (عزيز أوسو: البلاغة التراثية واللسانيات التداولية: نحو مقاربة تأصيلية معرفية، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، مجلد 2، عدد 1، الجزائر، 2021، ص: 328).

7 حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 19.

8 محمد العمري: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، افريقيا الشرق، ط 1، الدار البيضاء، 2013، ص: 87.

9 ادريس جبري: سؤال المصطلح البلاغي في المشروع العلمي لمحمد العمري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، عدد 3، 2013، ص: 83.

10 محمد العمري: أسئلة البلاغة، ص: 299 - 298.

11 محمد العمري: البلاغة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 2017، ص: 76.

12 محمد العمري، البلاغة بين التخييل والتداول، افريقيا الشرق، ط 2، الدار البيضاء، 2012، ص: 15.

13 محمد العمري: أسئلة البلاغة، ص: 21.

14 محمد العمري: البلاغة والمناظرة، ص: 51.

15 محمد العمري: البلاغة بين التخييل والتداول، ص: 22.

16 نفسه، ص: 17 - 18.

17 نفسه، ص: 13.

18 محمد الوالي: الطريق نحو البلاغة والخطابة الجديدتين، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 10، 2017، ص: 50 - 51.

19 نفسه، ص: 10 - 11.

20 نقلا عن: الحسين بنوهاشم: بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد، ط 1، بيروت، 2014، ص: 213.

21 محمد مشبال: في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، ط 1، 2016، ص: 66.

22 مشيل مايير: الحجاج والبلاغة وعلم الأشكلة، ترجمة ادريس جبري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 10، 2017، ص: 127.

23 ألان لومبير: اختزال البلاغتين الجديدتين، ترجمة محمد مشبال، مجلة البلاغة وتحليل الحطاب، عدد 10، 2017، ص: 106.

24 أرسطو: الخطابة، تحقيق عبد الرحمان بدوي، النهضة المصرية، ط 1، القاهرة، 1959، ص: 181.

25 عباس رحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، مطبعة النجاح الجديدة، ط 1، الدار البيضاء، 1999، ص: 236.

26 الجاحظ: البيان والتبين، ج 1، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط 1، القاهرة، 1998، ص: 138 - 139.

27 شايم بيرلمان: التربية والخطابية، ترجمة الحسين بنوهاشم، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 3، 2013، ص: 153.

28 محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص: 51.

29 محمد مشبال: منزلة الإيتوس في البلاغة الجديدة، ، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 10، 2017، ص: 107.

30 نفسه، ص: 107.

31 محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص: 56.

32 عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر، ط 1، تونس، 2011، ص: 71.

33 محمد مشبال: منزلة الإيتوس في البلاغة الجديدة، ص: 107.

34 مشيل مايير: الحجاج والبلاغة وعلم الأشكلة، ترجمة ادريس جبري، ص: 118.

35 محمد مشبال: في بلاغة الحجاج، ص: 263.

36 عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ج 2، دار كنوز المعرفة، ط 1، 2015، ص: 257 - 258.

37 طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط 4، الدار البيضاء، 2010، ص: 35.

38 محمد الولي: الطريق نحو البلاغة والخطابة الجديدتين، ، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 10، 2017، ص: 42، بتصرف.

39 نقلا عن: محمد الوالي: الطريق نحو البلاغة والخطابة الجديدتين، ص: 53.

40 طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1998، ص: 226.

41 محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، دار الثقافة، ط 1، الدار البيضاء، 1986، ص: 97.

42 نفسه، ص: 97.

43 محمد الوالي: الطريق نحو البلاغة والخطابة الجديدتين، ص: 53.

44 أرون كبيدي فاركا: البلاغة وإنتاج النص، ترجمة محمد العمري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 10، 2017، ص: 28.

45 محمد العمري: البلاغة العامة النسق المصطلحي والخريطة النصية، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، عدد 9، 2016، ص: 26.

46 البلاغة وأنواع الخطاب، إشراف محمد مشبال، رؤية للنشر والتوزيع، ط 1، 2017، ص: 9.

47 محمد مشبال: عن بلاغة الرواية: مفهوم البلاغة الرحبة عند محمد أنقار: من "خطاب البلاغة" إلى "بلاغة الخطاب"، ضمن كتاب بلاغة السرد: محمد أنقار ناقد السمات ومبدع السرد، تنسيق محمد مشبال، دار كنوز المعرفة، ط 1، 2019، ص: 21.

48 نفسه، ص: 21.

49 حمّادي صمّود: من تجليات الخطاب، مكتبة المتنبي، المملكة العربية السعودية، ط 1، 2012، ص: 76 - 77.

50 البلاغة وأنواع الخطاب، إشراف محمد مشبال، ص: 9.

51 محمد مشبال: مقولات بلاغية في تحليل الشعر، مطبعة المعارف، ط 1، الرباط، 1993، ص: 17.

52 نفسه، ص: 17.

53 محمد مشبال: بلاغة النص السردي مراجعة نقدية، مجلة النقد الأدبي فصول، مجلد 22، عدد 101، 2017، ص: 537.

54 محمد مشبال: عن بلاغة الرواية: مفهوم البلاغة الرحبة عند محمد أنقار: من "خطاب البلاغة" إلى "بلاغة الخطاب"، ص :17.

55 نفسه، ص: 18.

56 نفسه، ص: 21.

57 محمد مشبال: مقولات بلاغية في تحليل الشعر، ص: 30.

المصادر والمراجع:

ـ ابن المعتز: كتاب البديع، تحقيق كراتشوفسكي، دار المسيرة، ط 3، بيروت، 1982.
ـ أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج 2، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت.
ـ أحمد بوعنان: التفاعلات الحجاجية في الخطاب: دراسة في باطوس وإيطوس الخطاب التجاري، في كتاب مشترك: "البلاغة والحجاج في الخطاب" إشراف أحمد بوعنان، منشورات جامعة محمد الخامس، المدرسة العليا للأساتذة، 2020.
ـ أحمد بوعنان: صورة الذات في الخطاب، الخطاب التجاري نموذجا، مجلة بين النهرين، العراق، 2017.
ـ إدريس جبري: سؤال المصطلح البلاغي في المشروع العلمي لمحمد العمري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، عدد 3، 2013.
ـ أرسطو، الخطابة: تحقيق عبد الرحمان بدوي، النهضة المصرية، ط 1، القاهرة، 1959.
ـ أرون كبيدي فاركا: البلاغة وإنتاج النص، ترجمة محمد العمري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 10، 2017.
ـ ألان لومبير: اختزال البلاغتين الجديدتين، ترجمة محمد مشبال، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، عدد 10، 2017.
ـ البلاغة وأنواع الخطاب، إشراف محمد مشبال، رؤية للنشر والتوزيع، ط 1، 2017.
ـ الجاحظ: البيان والتبين، ج 1، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005.
ـ الحسين بنوهاشم: بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد، ط 1، بيروت، 2014.
ـ بلاغة النص النثري مقاربات بلاغية حجاجية، إشراف محمد مشبال، دار العين، الاسكندرية، 2013.
ـ حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
ـ حمّادي صمّود: من تجليات الخطاب، مكتبة المتنبي، ط 1، المملكة العربية السعودية، 2012.
ـ شايم بيرلمان: التربية والخطابية، ترجمة الحسين بنوهاشم، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 3.
ـ طه عبد الرحمان: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1998.
ـ طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط 4، الدار البيضاء، 2010.
ـ عباس أرحيلة: الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين إلى حدود القرن الثامن الهجري، مطبعة النجاح الجديدة، ط 1، الدار البيضاء، 1999.
ـ عبد الله صولة: في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر، ط 1، تونس، 2011.
ـ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ج 2، دار كنوز المعرفة، ط 1، 2015.
ـ عزيز أوسو: البلاغة التراثية واللسانيات التداولية: نحو مقاربة تأصيلية معرفية، مجلة الإبراهيمي للآداب والعلوم الإنسانية، مجلد 2، عدد 1، 2021.

_ محمد العمري: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، افريقيا الشرق، ط 1، الدار البيضاء، 2013.

_ محمد العمري: البلاغة العامة النسق المصطلحي والخريطة النصية، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، عدد 9، 2016.

_ محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، ط 3، الدار البيضاء، 2010

_ محمد العمري: البلاغة بين التخييل والتداول، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2012.

_ محمد العمري: البلاغة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، افريقيا الشرق، ط 1، الدار البيضاء، 2017.

_ محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، دار الثقافة، ط 1، الدار البيضاء، 1986.

_ محمد الوالي: الطريق نحو البلاغة والخطابة الجديدتين، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 10، 2017.

_ محمد مشبال: بلاغة النص السردي مراجعة نقدية، مجلة النقد الأدبي فصول، مجلد 22، عدد 101، 2017.

_ محمد مشبال: عن بلاغة الرواية: مفهوم البلاغة الرحبة عند محمد أنقار: من "خطاب البلاغة" إلى "بلاغة الخطاب"، ضمن كتاب بلاغة السرد: محمد أنقار ناقد السمات ومبدع السرد، تنسيق محمد مشبال، دار كنوز المعرفة، ط 1، 2019.

_ محمد مشبال: في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، ط 1، 2016.

_ محمد مشبال: مقولات بلاغية في تحليل الشعر، مطبعة المعارف، ط 1، الرباط، 1993.

_ محمد مشبال: منزلة الإيتوس في البلاغة الجديدة، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 10، 2017.

_ مشيل مايير: الحجاج والبلاغة وعلم الأشكلة، ترجمة ادريس جبري، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ع 10، 2017.

_ هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة محمد العمري، افريقيا الشرق، ط 1، الدار البيضاء.